مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/ العدد: 3 (2022)، ص: 832-851

المحافظة على الهوية في مواجهة الغزو الثقافي إبان الاستعمار الفرنسي

Preserving identity in the face of cultural invasion during French colonialism

قناني ميلود[1]

[1] جامعة زيان عاشور (الجلفة)، kennanimiloud@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/26 تاريخ القبول: 2022/08/22 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

إن اشكالية الصراع الحضاري أفرزت في واقع التاريخ صراعا تمثل في موجات الاستعمار التي حاولت طمس معالم الهوية الحضارية للأمم المستعمرة وأول ما بدأت بطمسه هو محاولة وأد لغتهم الأصيلة فيهم بلغة الغازي المستعمر لقدكانت الحياة الثقافية للجزائر قبيل الاستعمار الفرنسي مزدهرة، فأغلب المواطنين متمكنين من القراءة والكتابة ما دفع نسبة الأمية إلى الضمور وكان يظهر جليا قوة التمسك بالهوية الثقافية للأمة بالرغم من كل محاولات الاستيلاب الثقافي ورغم تكثيف الغزو الثقافي لموجات عاتية ومحاولات متتابعة لطمس هوية الأمة الجزائرية فلم تنل منها الشيء الكثير ومرجع ذلك لفطنة ووعي كثير من جهابذة الأمة ورادة الفكر وتمسك أفراد هذه الأمة بلغتهم وتيقنهم بأن لسانهم ما هو الا مظهر من مظاهر وجودهم فاللغة هي ركيزة من ركائز هوية الأمة

الكلمات المفتاحية: اللغة، الغزو، الهوية، الثقافة، الاستيلاب.

Abstract:

A The problem of the civilized conflict resulted in the reality of history, a conflict represented in the waves of colonialism that tried to obliterate the features of the civilizational identity of the colonial nations. The ratio of illiteracy to atrophy, and the strength of adherence to the cultural

identity of the nation was evident despite all attempts at cultural appropriation and despite the intensification of the cultural invasion of powerful waves and successive attempts to obliterate the identity of the Algerian nation, but it did not gain much from it. And their certainty that their tongue is nothing but a manifestation of their existence, for language is one of the pillars of the nation's identity.

Keywords: language, invasion, identity, culture, alienation.

***المؤلف المرسل:** قناني ميلود

1. مقدمة

بالرغم من كل محاولات الاستيلاب الثقافي ورغم تكثيف الغزو الثقافي لموجات عاتية ومحاولات متتابعة لطمس هوية الأمة الجزائرية فلم تنل منها الشيء الكثير ومرجع ذلك لفطنة ووعي كثير من جهابذة الأمة ورادة الفكر وتمسك أفراد هذه الأمة بلغتهم وتيقنهم بأن لسانهم ماهو الا مظهر من مظاهر وجودهم وتخليهم عليه او الفتور في الذود عنه هو الفناء الذي يجتث أصلهم وقد كان لهذه الحملات بالغ الأثر حيث أخذ هذا التأثير صورا وأشكالا متنوعة فمن بين أبناء جلدتنا من سري في عروقه ما نفث الغزاة من سموم فصار حامي حمى الغزاة ينافح عن أفكارهم ولغتهم ليصل بهم الحد أن صاروا معجبين كل العجب بكل منتج غربي يرونه أفضل من غيره فألغوا ثقافة أجدادهم ونفروا منها نفور الوحش من الغضنفر واستصغروا شأن ثقافتهم التليدة وراحوا يشيدون بكل بارق غربي وإن كان تافه فتراهم يستشهدون بأفكار غربية سوقت على قصد لتحل محل محد فكري تليد تركه اوائلهم وكأن تلك الأفكار هي الحقيقة التي لا ينبغي لأحد أن يحيد عنها وغيرها ملغى لا قيمة له فإذا ذكر أحدهم قول رجل غربي ولاك اسمه الغريب عن ثقافتهم اشرأبت له الأعناق ودانت له الرقاب وصار محجة فكرهم ومنشد

ألبابهم إن كانت لهم ألباب أصلا إلا أن الله قيض لهذه الأمة رجالا تحدوا هذا الموج الطاغي وتصدوا لهذا الزيف الفكري فانبروا يوعون الأمة بخطر التغريب ويوقضون أهل الضمائر التي لم يسري بعروقها الموات فتنوعت منابرهم من قلاع المساجد والكتاتيب التي كانت منارات أضاءت عقول الناشئة والمدارس التي غصت بجحافل النشأ الصالح فظهر جيل بل أجيال وقد تعبأ بقيم ماضي أجداده التليد وتشرب أسس حضارته الروحية الشرقية الأصيلة فعمد إلى إحياء رموز لغته ودينه فعرفوا شعراء أمتهم واستظهروا أشعارها فأحيي أمرؤ القيس وزهير بن سلمي من جديد وعنترة بن شداد وبإحياء هؤلاء أحييت نخوة أصيلة ومحد تليد فتشرب الشعب قيمه الأصيلة التي تمثلتها ثقافتة أسلافهم أوليس عنترة هو القائل: (شداد، الديوان ، 1992):

ولقد أبيت على الطوى وأظله * حتى أنال به كريم المأكل**

القيم التي درج عليها آباؤنا لا ما استجلب من أخلاق تتستر تحت مظلة قيم أخلاقية زائفة حينا تحت قيمة الحرية وحينا آخر تحت مضلة الشجاعة الأدبية والجرأة إنما ينبغي أن يتصف شباب الأمة بما كان من سلوك آبائهم الأوائل من هذه الشمائل الفاضلة ما يجسده قول فحل الشعراء عنترة بن شداد (شداد، الديوان ، 1992):

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي * حتى يواري جارتي مأواها**

هذه الأسماء والرموز كانت بديلا لأسماء غريبة عن أمتنا تسوق لفكر غريب عنا وتسعى لأكمار الشباب بقيم ظاهرها جميل وباطنها مسموم ومن ذلك كتابات الأديب الفرنسي الشهير فيكتور هيجو حيث يقدم لنا شخصية

رجل الكنيسة بالسيد الفاضل الذي تتجسد به قيم المروءة والأخلاق الفاضلة حين يأوي شخصية جون فالجون خريج السجون وبعدما يسرق شمعدان الكنيسة ويلقي عليه رجال الدرك القبض ويأتون به إلى رجل الكنيسة

يدعي أنه أهداها له ولم يسرقها هكذا يسوقون للفكر الكنسي على أنه سلوك التسامح والإحسان إنما هي في الحقيقة دعوة مضمرة لاعتقاد المسيحية المحرفة عبر توظيف الفن والأدب ولقد كان كثير من أبناء هذه الأمة مولعون أشد الولع بالنماذج التي يقدمها الأدب الغربي ويسوق من خلالها لغة غريبة عنا بل لغة بديلة للغتنا الأصيلة التي تشكل هويتنا

1وضع الجزائر قبل الاستعمار وأهمية الحالة الثقافية في تشكيل الهوية الحضارية:

كانت الحياة الثقافية للجزائر قبيل الاستعمار الفرنسي مزدهرة، فأغلب المواطنين متمكنين من القراءة والكتابة مادفع نسبة الأمية إلى الضمور وكان يظهر جليا قوة التمسك بالهوية الثقافية للأمة وما يعزز هذا الكلام ما كتبه الرحالة الألماني «فيلهلم شيمبرا» حين زار الجزائر في شهر ديسمبر 1831م)، فقال: (زرهوني، 1994) : «لقد بحث قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب >>. ومن مظاهر وأسباب هذا الازدهار وجود مؤسسات تعليمية ومنارات علمية كثيرة فقد أحصيت المدارس في الجزائر سنة (1830م)، فعدت بأكثر من ألفي مدرسة ما بين ابتدائية وثانوية وعالية هذا توصيف للوضع التعليمي الذي كانت عليه الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي حيث كان المستوى التعليمي مزدهرا فغالبية الشعب كانت متمسكة بعناصر هويتها الحضارية ودليل ذلك الانتشار المكثف للكتاتيب القرآنية ومراكز نشر الثقافة الاسلامية فكانت المساجد تغص بمرتاديها حيث يتداول كثير من العلماء على تفقيه الناس في أمور دينهم من عقائد ومعاملات هذا التمسك باللغة والدين عضد التمسك بالعنصر الثالث للهوية الا وهو الوطن فكان الناس لا يتوانون في الدفاع على أوطانهم واعتبارها من أقدس المقدسات حيث يرون في

الجهاد والدفاع على ثغور الأمة واجبا بل يرون في الاستشهاد حياة أبدية وغاية ومقصد من غايات حياتهم مثل هذه الفهوم التي تشبع بها الشعب واعتقدها اعتقادا راسخا كانت نخاع الثقافة الأصيلة التي نهلت منها الأجيال المتعاقبة واعتبرتها الوقود الذي زودها بالطاقة الايجابية التي ذادت بها على حياض الأمة فكانت الحصن الحصين والقاعدة الصلبة التي لم تنل منها كل محاولات الاستعمار حيث ظلت صامدة أمام كل محاولات الاستيلاب والجهود الاستعمارية في طمس معالم الهوية الحضارية للأمة الجزائرية فرصانة وقوة التمسك بالهوية إن اللغة أو الدين أو الوطن جعلت الجيش الجزائري وأسطوله البحري التاريخي حيث جدفت سفنه بمجاديف النصر وجالت تشرئب أعناقها في سماء النصر مزهوة بأسمى قيم القوة المستمدة من نياط روح الانتماء لهوية العروبة والاسلام كهوية حضارية رفلت في مسار حضارة شعوب البحر الأبيض المتوسط ردحا من الزمن ولم يأفل نجمها الا بعد أن سجلت في صفحات التاريخ النصر تلو النصر كفاها في ذلك أنها كانت تحمي كل السفن التي تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط بمقابل تدفعه للدولة الجزائرية كانت ما كانت هذه السفن إن تابعة لأنجلترا أو أمريكا أو اسبانيا أو كانت ماشاءت أن تكون من مختلف الجنسيات آن ذاك

2-محاولات الاستعمار الفرنسي لطمس الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري:

كان واضحا وجليا أن الغزو الاستعماري استهدف أول ما استهدف طمس معالم الهوية الحضارية للجزائر وسعى بعد ذلك إلى استبدالها بثقافة غريبة عنها ثقافة غربية مسيحية تحمل أضغان الصليبية يغذيها الحنق والحقد التاريخي الذي يكيله هؤلاء للأمة الجزائرية بمجرد أن وطأت أقدام المستدمر الفرنسي أرض الجزائر انبرى لمحاولات طمس الهوية الثقافية بوسائل مختلفة فالكاتب الفرنسي أوغست برنارد كان واضحا عندما كشف عن الهدف الحقيقي للاستدمار الفرنسي في الجزائر حيث قال (شريط، 1884) "إننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل

لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية.. وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية .. ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما.. إننا نريد أن نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات.. وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوغو)."

هذه المقولة التي تعتبر من أسس النهج الاستعماري تكشف بوضوح المشروع الاستعماري على أنه لا يعتبر مشروع نهب وسلب لخيرات البلاد وقتل وتشريد وهذا ما اتصفت به الحملة الاستعمارية ومارسته فعلا خلال فترة الاستعمار بل تجاوزت هذا التخريب والتدمير وارتكاب مجازر في حق الأرض والبشر بل حاولت طمس معالم التاريخ ولي عنق المسار الحضاري للأمم المستعمرة وجعلتها تغط في غياهب الأمية وجهلت الشعوب حيث اعتمدت مبدأ التجهيل حتى يتيسر لها تسيير والتحكم في أمور الأمة ومما يوضح ويكشف النوايا السيئة والرديئة لأصحاب هذه الحملة الاستدمارية الشرسة قول **أحد الفرنسيين**:" أردنا أن نجعل من إخواننا المسلمين شعبا من الأميين... وقد كان الأمر يهون لو أننا لم نحرم عليهم إلا استعمال لغتنا، ولكن الواقع أن من متطلبات النظام الاستعماري أن يحاول سد طريق التاريخ عليهم، ولما كانت المطالب القومية في أوروبا تعتمد دائما على وحدة اللغة، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات). ولكنهم اصطدموا بأمة تعي جيدا أن اللغة هوية الأمة، وأعظم مقومات وجودها، ووطنها الروحي. وأن الأمم الحرة اليقظة تدافع على لغتها دفاعها على أوطانها. والوشائج بين قيمة الأمة وقيمة لغتها متينة جدة، فاللغة هي الأمة! وفي هذا المضمار قال طه حسين: (حسين، 1955) "إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا معرفة لغتهم، ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضا".لم يكن طه حسين مخطئا حينما ربط التشبث باللغة وقوة الشخصية فالرجولة الحقة والعزة كل العزة والأنفة تتجسد في الحفاظ على لغة الآباء والأجداد باعتبارها جزأ من

الشخصية وأن من تسامح في أمر لغته وتركها تهون فيناله الهوان والصغار فجهبذ القلم مصطفى صادق الرافعي يقول في هذا الشأن ما ذلت لغة قوم الا ذلوا فاعتبر مصطفى صادق الرافعي أن الحفاظ على سيادة اللسان العربي يعد حفاظا على كرامة الأمة فهي مقوم أساسي وركيزة من ركائز الهوية بل هي روح الأمة تحيا بحياتها وتموت بمواتها لم يستسلم الشعب الجزائري طيلة الفترة الاستعمارية وتنوعت أساليب مقاومته فقد جابه سياسة الفزنسة والتغريب وكان على وعي تام من أن كل ما يأتي من المستعمر ولو كان ظاهره صلاح الشعب لكنه كان موقنا أن باطنه سم قاتل من شأنه أن يأتي على جذور الانتماء الحضاري لهذه الأمة ويصيبها في أصلها وحقيقة وجودها فمحاولات الاندماج لم تأتي بالثمار المتوخاة منها وفي هذا الصدد تقول المؤرخة الفرنسية إيفون تيرين yvonne turin: (Turin، 1971)"وبدأ الصراع يوم بدأ المحتل يفرض لسانه وتفكيره وأسلوبه في الحياة مستعملا المدرسة والمستشفى المعلم والطبيب ولكن المسلمين ردوا الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضي حوالي عشرين سنة 1830.1850 يحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ وينشئ المستشفيات فلا يتردد عليها المريض وتعددت الصعوبات في وجه الاحتلال وكثرت وأصبح الدين الاسلامي كالأسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج ''هذه العبارة للمؤرخة الفرنسية تعتبر شهادة تاريخية تثبت مقاومة الأمة الجزائرية لكل أشكال الغزو الثقافي والتصدي لكل المحاولات اليائسة لطمس معالم الهوية الحضارية للأمة ويؤكد هذا ساطع الحصري بقوله: (الحصري، 185) « ومع كل ذلك فلم ينجحوا أي الفرنسيين فيما كانوا يرمون إليه ويمكن التأكيد بأن الجهود التي بذلها هؤلاء في هذا السبيل أي الفرنسة لم تثمر من الثمرات الايجابية ما يستحق الذكر ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير الناس منهم وتبعيدهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام لأن الناس صاروا ينظرون الى جميع تلك المؤسسات كفخاخ للتنصير. »لهذا فقد اجتهد كثير من المنظرين

الفرنسيين في محاولات لتفسير فشل هذه السياسات الغازية التي تستهدف استيلاب هوية الأمة ووجدوا لها تفسيرات مختلفة من بينها حصانة الأمة من خلال المنابر الدينية المتمثلة في الزوايا المنتشرة عبر التراب الوطني والمساجد التي كانت تعتبر حقا منارات علمية ومراكز اشعاع ونشر للثقافة الإسلامية الأصيلة ولاغرو من ذلك فأغلب الثورات كان يتزعمها مشايخ الزوايا وجنود هذه الثورات ما هم إلا مريدي هذه الزوايا حيث كانوا يولونها قداسة ويعتبرونها مرجعيتهم الدينية التي لا مناص من الاستلهام منها واتباعها في كل ما تأمر به لذا نجدهم يأتمرون بأمرها ويخنعون لها خنوعا تاما ويرخسون أنفسهم فداء لدينهم فمن هذه الثورات الكثيرة ثورة أولاد سيدي الشيخ ثورة لالا فاطمة وثورة المقراني وثورة الشيخ الحداد وثورة الشيخ بوعمامة وكل هؤلاء من زعماء الزوايا .

كما تجدر الإشارة إلى أن فكرة التسلل عبر مسألة الهوية والانتماء كان واضحا أن الهدف منه هو استمالة الجزائريين لاستبدال الحماية العثمانية بالاحتلال الفرنسي، خاصة بعد أن أصبحت الخلافة العثمانية ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن مناطق نفوذها الشاسعة . وانطلاقا من هذا المبدأ ظهر شعار الجزائر فرنسية الذي حاول الاحتلال تسويقه إلى العالم، وإقناعه به. وترتب عنه حركة استيطانية واسعة، وبناء المدارس الفرنسية في أطوارها المختلفة لتكون الأداة الفعالة في تغيير الطابع الثقافي للشعب الجزائري. ونتج عن هذا النشاط الاستدماري ازدواجية لغوية تجمع لغة فرنسية قوية وأخرى عربية ضعيفة بفعل التضييق على الناس في استعمالها، وتشجيع اللغة العامية كلغة منافسة وواسعة الانتشار، مما أدى في النهاية إلى ظهور طبقة اجتماعية لقيطة لاهي فرنسية واضحة الانتماء الغربي ولاهي جزائرية ولم تكن تميزها اللغة فقط بل كانت سلوكاتها وأهواؤها مشدودة بحبال متينة تجاه الغرب الاستعماري " حيث خلق في مجتمعنا تمزقا في الثقافة والتفكير والأخلاق وفي الحياة الاجتماعية نفسها" على

حد قول عبدالله شريط ولا أجد كلاما أدق من قول مصطفى صادق الرافعي في هذا الشأن حيث يقول: (الرافعي، 2017) {{لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين؛ فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته؛ إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده؛ فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر حتى أن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء. }}فالمستعمر يعلم كل العلم أن اللغة مصدر قوة ووشيجة تستحكم نسيج الأمة من الانفلات والتشتت فإذا هانت لغته سهل أمر إهانته وتيسر التحكم فيه وكان للانقياد أيسر فتستبدل لغته التي كانت تحمل إرث آبائه وأجداده اللغة التي كانت تمثل ماضيه وتاريخه بلغة أخرى غريبة عنه تحقن في جسده الحضاري تاريخا غريبا عليه وأفكارا وعاطفة لم يدين بها أجداده فتموت فيه الغيرة على نفائس أمته بل وتظمر روح الانتماء الى مجده التليد ويتسع جراب لغة الاجنبي ليحل محل لغته الأصل فيصير ينتشي لما ينتشي له العدو ويسعد لما يسعد له المستعمر أو ليست اللغة حاملة لكل ما صهر في بوتقتها المعرفية من عواطف وأحلام وآمال وأفكار أمتها الأصل فمادام الحال كذلك فهي السلاح بل الجيش الذي إذا اكتسح مجالا سيطر عليه كل السيطرة وتحكم فيه كل التحكم بل إنما يصعب فيما بعد إجلاءه ودحره ورده الى حدود ثقافته الطبيعية وحضارته الأصلية ويرى الطيب بن إبراهيم (بوشلوح، 1998) أن " العلاقة بين الغزو الثقافي وثقافة الغزو موجودة ودقيقة ومرتبة ترتيبا أوليا ومرحليا ونوعيا، من ثقافة عامة ذات طابع غربي إلى ثقافة خاصة ذات طابع غزوي استعماري فرنسي، هدفها بالدرجة الأولى خدمة الغزو الفرنسي الخاص ومصالحه الاستعمارية وخصوصيته الثقافية".

ومع كل هذه المحاولات من التخريب الثقافي، تواصلت موجات التبشير المسيحي، في محاولة لاستغلال الأوضاع المأساوية للشعب الفقير المقهور. وفي هذا الصدد يؤرخ أبو القاسم سعد الله لحدث هام تمثل في أنه " في عقد الستينيات وبخاصة بعد كارثة المجاعة التي أصابت الحرث والنسل، قام الكاردينال الافيجري بتأسيس جمعية (الآباء البيض) التي انتشرت في شمالي إفريقيا، تفتح المدارس والمصحات ومراكز التكوين المهني للتوغل بين السكان في محاولة لتقريبهم من النصرانية إن لم تستطع تنصيرهم كليا، وقد جذبت إليها أعدادا هامة من الأطفال في المدارس، واهتمت بالبنات في مراكز التكوين المهني، وقدمت الدواء للمرضى والمشردين والعجزة، تحت ستار المساعدة والأعمال الخيرية، بينما كان الهدف تنصير الجزائريين بالتعليم ذي البرنامج التمسيحي الصريح، أو برنامج لهدم العقيدة والأخلاق الإسلامية وبث التقديس للأمة الفاتحة، ولحضارتها وثقافتها."

إن عبارة الغزو الثقافي تحيلنا على أطروحة الغزو الثقافي فهي تحوي الفعل العدائي الذي تمارسه القوى المسيطرة والمهيمنة في مختلف النشاطات الانسانية وفي شتى مجالات النشاط والانتاج الحضاري من سياسية واقتصادية وثقافية فتجتاح حدودها إن الجغرافية والسياسية لتصل الى خرق الحدود الثقافية فتحدث تغييرا جذريا على مستوى حياة الشعوب المخترقة فتغير من عاداتها وتأسر لغتها محاولة استبدالها بلغة جائحة مهيمنة بفكرها الغازي ومستجلبها العدائي فهذا الشرخ الذي يمس مختلف مناحي الحياة يعد أثرا لفعل عدائي يعرف بالغزو الثقافي الذي يمكن للأمة الغازية من استمرار سيطرتها على الأمة المغزوة ومن خلال هذا النشاط العدائي فإن كثيرا من الشعوب وإن بدت مستضعفة مغلوبة على أمرها حينا من الدهر الا أنها لم تبق خانعة مستسلمة لأرادة الغزاة بل بقيت جذوة الحياة الأصيلة فيها التي تكشف انتماءها الحضاري والثقافي بقيت متقدة جذوتها تصارع رافضة الاستيلاب متحدية الخنوع للقوى الامبريالية بكل شراسة

التي تتغول بكل شراسة لتستحكم في مصير شعوب لا تدين بدينها ولا تصطبغ بصبغتها الثقافية بله لا تمت بصلة لموروثها العرفي ولا الثقافي فتسعى جاهدة لطمس كل معالم الحياة القديمة لدى هذه الشعوب جاهدة في استبدالها بوضع غريب عن أصلها ولغة لا تحمل مآثر تاريخها بل بلغة جديدة تحمل فكرا عدائيا تسعى لترسيخ قيم مستجلبة تناقض الأسس الحضارية والثقافية للأمم المغلوبة على أمرها

3- أشكال الغزو الثقافي :

لم يعد يعتمد الغازي على الشكل التقليدي للغزو الثقافي فالتدخل العسكري السافر ومحاولة التغيير بالطريقة الهمجية استهلكها التاريخ ولم يعد منها جدوى لذا عمد الغازي الى طرق أكثر دهاء وخبثا إذ لجأ الى توظيف النشاط التجاري والاقتصادي فاعتمدهما وسائل لتصدير أفكاره ومن ثمة السيطرة على عقول الشعوب والتحكم في أساليب تفكيرها وبناء فكرها الغازي على أنقاض فكر تليد قد قوضت دعائمه المستجلبات التجارية والثقافية بأنواعها من أنشطة فنية كالغناء ومستجلبات أخرى مادية من مختلف منتجات الحضارة التي تحمل بباطنها سموم قاتلة لروح الحضارة الأصيلة للشعوب المغزوة ولم يكتف الغزاة بهذه الجبهات العاتية من أمواج الغزو بل راحوا يعضدونها بجبهات أخرى لا تقل شراسة وعدائية عن سابقاتها فصدروا لنا مناهج وبرامج تعليمية ترتكز أول ما ترتكز على تبجيل وتقديس لغاتهم وتقديمها في حلة منمقة على أنها هي الوسيلة الوحيدة الناجعة وأن غيرها لا طائل يستجدى منه فصار المغلوب على أمره يحتقر شأن لغته ويزدريها ويعتبرها علة إخفاقه وأنها ليست مؤهلة لمجاراة اللغة المستجلبة التي وسمت بأنها لغة الحضارة الوحيدة دون سواها وأنها لغة العلم ولغة الحضارة ومن لثغ بها يعد مثقفا متحضرا وفي المقابل من يلثغ بلغته الأم هو شخص قديم تجاوزته الأمور وعفت عليه مستجلبات الأحداث لكن قيض الله

للأمة رجالا نهضوا بلغتها وجعلوا منها لغة تساير كل مستجدات الحضارة بل أحيوها بعد شبه موات وأزهرت فروعا لها اعتمدت العلم شريعة وسبيلا فازدانت بجهودهم مدرجات الجامعات ونشطت بمنتجهم مخابر العلم ورفرفت روح التحدي في الآفاق ، وإن طال جهود الغزاة عقول بعض أفراد الأمة وكانوا فريسة لجهودهم ونشاطهم المسموم فتشبه في شكله بالغزاة وسحروا لبه حينا من الدهر فلثغ بما خططوا له وأرادوا له أن يلثغ به فتلك حقيقة لا ينكرها التاريخ فقد أعد الغزاة ترسانة عاتية من منتجات الحضارة المادية وظف فيها أعتى الأسلحة من وسائل إعلام ثقيل متجدد سحر لباب كثير من شباب الأمة وأسر اهتمامهم في الدائرة التي أراد أن تكون مركز انشغالهم لاغير بدأ بتوظيف ما وصل اليه من منتج حضاري من راديو ثم السينما ثم التلفزيون وهواتف على مختلف أشكالها من تطور وضعت كلها للسيطرة على لباب أبناء جلدتنا من أجيال مناط بها أن تبني صرح مجد تليد وحضارة لها هويتها التي تميزها عن غيرها من الأمم

4- جهود الجزائريين في مكافحة الاستدمار الثقافي:

ولم يقف الجزائريون موقف الفريسة من المغتصب ولكنهم واجهوا كل محاولات الاستلاب الثقافي وبذلوا جهودا وضحوا تضحيات جسيمة فأنشئوا حصونا ثقافية ومنابر منها الكتاتيب والمدارس والصحف واعتلوا مختلف المنابر من سياسية في إطار الأحزاب السياسية ودينية كمنابر المساجد ولم تفتهم مناسبة أو ظرفا الا واستغلوه كسلاح وأداة لمواجهة ودفع وإحباط كل محاولات الاستلاب والاستدمار الثقافي ومن هذه المعارك المؤتمر الإسلامي عام 1936 :هو أول تجمع جزائري جمع كل التيارات السياسية رغم اختلاف اتجاهاتها عقد بسبب إصدار فرنسا المشروع بلوم فيوليت الذي يمنح الجنسية الفرنسية لبعض الشباب الجزائري المثقف بالفرنسية بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية أي التنكر للإسلام إن فكرة المؤتمر كانت من عبد الحميد بن باديس و الدكتور بن جلول . و

لهذا كانا من ابرز الحاضرين إلى جانب البشير الإبراهيمي، و الدكتور سعدان وفرحات عباس و الدكتور بن التهامي وغيرهم من أقطاب الأحزاب المشاركة . و قد طالب المؤتمر - إلغاء المعاملات الخاصة بالجزائريين . إلغاء المحاكم العسكرية - اعتبار اللغة وكذالك من هذه المعارك ما يحتفظ به للعلامة ابن باديس من رد فيما يخص قانون الثامن من مارس سنة 1939 الذي أصدرته السلطات الفرنسية حيث قال: (باديس، 1981) " أيها الإخوان ها هو هذا العزيز المفدى قد كشف في محاربته القناع، وأحيط به من كل جانب، وأديرت فيه الآراء، ودبرت له المكائد، ثم رمي عن قوس واحدة بالسهم المسموم: بقانون الثامن مارس المشئوم، ذلكم القانون الذي شاهدتم أثره في المدارس والمكاتب المغلقة، وأفواج الصبيان والصبيات المشردة، وفي وقفات المحاكم التي وقفتموها والمغارم التي دفعتموها، والسجون التي دخلتموها، وما لقيتم وتلقون من جهد وعنت. اشهد انه لم ترم الجزائر المسلمة بمثل هذا السهم على كثرة الرمي وتفنن الرماة. فقد كان كل ما أصابها هو في بدها، وفي غير معقد البقاء منها، أما هذا السهم فهو في روحها، في صميم فؤادها، في مصدر حياتها".

أما الصحافة التي حاول كثير من المفكرين الجزائريين الاستعانة بها لنشر الوعي، فقد تعرضت هي الأخرى إلى حملات توقيف ومصادرة كلما أحست السلطات الاستعمارية أنها تشكل خطرا عليها . وقد رأينا كيف أن صحفا لم تتعد العدد الأول أو الثاني في صدورها، مثل جريدة (الميزاب) في الجنوب، التي صدر عددها الأول والوحيد في 25/01/1930

و(الجزائر) التي أصدرها عمر راسم عام 1908 وقد أغلقتها الحكومة الفرنسية بعد أن صدر منها عددان فقط ، ثم صدرت عام 1911 م. ولم يتوقف عند هذا بل واصل نشاطه وبعدها أصدر (الحق) في مدينة وهران، ولم تعش هي الأخرى إلا مدة قصيرة ثم أغلقتها الحكومة الفرنسية. وفي أفريل من سنة 1913

م صدرت جريدة (الفاروق (للشيخ عمر بن قدور، الذي يعتبر من أتباع المدرسة الإصلاحية الإسلامية المتأثرة بالشيخ محمد عبده ومجلة المنار للشيخ رشيد رضا، فأراد أن يقلده في مكافحة البدع والخرافات فقد نافحت مجلة الفاروق ردحا من الزمن وأصلحت ما اجتهد المستدمر في تدنيسه، لكن الحكومة الفرنسية الغاشمة أغلقتها وقامت بنفي صاحبها إلى واحة الأغواط ولم يفرج عنه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وثمة عدد آخر كثير من الجرائد والصحف التي تتالى صدورها فكانت لا تدخر جهدا في الذود عن حياض الأمة حيث انبرى كثير من أبناء الأمة الى تنوير أفراد الشعب وشحن أصحاب الهمم منهم بما يرسخ بوضوح هوية الأمة الجزائرية فحافظوا على لسانها العربي الأصيل ودينها وازدهائهم وفخرهم بانتمائهم لهذه الأرض التي لطالما سقيت بدماء الأباء والأجداد الذين لم يتوانوا هم بدورهم ففي التضحية وبذل نفوسهم رخيصة لهذا الوطن الغالي والنفيس لكن سرعان ما وجهت هذه المجلات والجرائد بقرارات التوقيف والتجميد وحوصرت كل حصار، وعوقب أصحابها بعقوبات مادية و معنوية، خاصة تلك التابعة الجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مثل (ميزاب) عدد واحد، 25الذي صدر بتاريخ/1930/01 م. و (المغرب) 38 عددا، حيث تواصل صدوره ونشاطه من 29/05/1930 إلى غاية 09/03/1931 م. والنور 78 (عددا، من15/09/1931إلى 02/05/1933 م. و(البستان) 10 أعداد، من 1933/04/27

إلى 13/07/1933. و(النبراس) 6 أعداد، من 21/07/1933 إلى) . 1933/08/22 الأمة) 170 عددا، من 08/09/1933 إلى 06/06/1938.وقد أشارت الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ الى هذه الجهود قائلة: (الشاطئ، 1998) " ...وتنشر "الشهاب" منارا و"البصائر" نورا وتفتح المدارس العربية في ظروف بالغة القسوة والحرج وتوفد طلابها لاستكمال دراستهم العالية في جامعات القرويين والزيتونة والأزهر وجامعة القاهرة ودمشق

وبغداد "هذه الجهود لم تكن فردية انما كانت جهود جحافل من الشباب الجزائري الذي أيقن أن الحفاظ على هوية الأمة إنما يتم بالتضحيات الجسام وفي الذود عن مرتكزات الهوية فاللغة حاملة للماضي بإرثه الثقافي وكلكله التاريخي الزاخر بالأمجاد والبطولات التي اعتبرت معينا لم ينضب منه ينهل الشباب وبه يصنعون مستقبلهم فلم تكن هجرة هؤلاء الشباب الى العواصم العربية بغية التفسح وانما اعتبروا هذه الامصار مصادر لهويتهم الشرقية الروحية الاصيلة فهي منبع العروبة وكنانة الاسلام التي يستلهمون منها هويتهم الحقيقية ليصنعوا غدهم المتأصل من هويتهم الحضارية

كثيرة هي وسائل قمع العربية في عقر دارها فسنت لها القوانين الظالمة المجحفة التي استصدرتها الادارة الاستعمارية فغلقت المدارس متوسلة بقانون الرخص المفروض على المعلمين وهكذا تحالف الاستعمار الفرنسي والاستشراق والتنصير والغزو الثقافي والفكري ضد هذه الأمة لتفتيتها وتتالت سهام العدو الغادرة لتنال منها وتصيبها في مقتلها والقضاء على هويتها وثقافتها لتسهل السيطرة عليها في المنظور المتوسط والبعيد ولكن هيهات. لأن الغازي الأوروبي كان لديه مشروعا يريد من خلاله تغيير خارطة العالم باحتواء أقطار عربية إسلامية واجتهد بكل ما أوتي من وسائل وقوة لطمس معالمها الحضارية ذات البعد الشرقي الروحي ليستبدلها بأمة تابعة له تدين بدينه وتلثغ بلغته فأراد استبدال المسجد بالكنيسة فهدم المساجد وبنى الكنائس وأنشأ المدارس ذات البرامج الغربية الغريبة عن هذه الأوطان فكون فئة تلثغ بلسانه وتفكر بتفكيره بل تنظر برؤيته فتحب كل ما يحب وتستجمل كل ما يستجمل هو بل وصل بهؤلاء الى أن صاروا يستهجنون ما يستهجن أسيادهم

5- نتائج سياسات الغزو الثقافي للاحتلال الفرنسي:

- 1 انتشار الجهل والأمية بشكل لا مثيل له، فقد عمد الاستدمار الفرنسي على تجهيل الأمة وعدم اعطاء فرصة التعليم للجزائريين بل وكبح كل نشاط من شأنه أن ينير عقول أفراد الأمة وما سمحت به من تعليم كان تعليما موجها يسعى لخلق فئة تدين بدين فرنسا وتلهج بلهجتها ومن ثم يتسنى لها التحكم في كل شؤون الأمة الجزائرية بحيث ورثت الحكومات الجزائرية المتعاقبة وضعا ثقافيا مزريا، ففي مجال محو الأمية وحده، بذلت جهود كبيرة للقضاء على الظاهرة، لكن توغلها في المجتمع حال دون القضاء عليها كليا .

-2التشكيك في هوية الشعب الجزائري، من خلال ازدواجية الشخصية الثقافية تبعا لازدواجية اللغة المتحدث بها. وقد ترتب عن هذا سؤال غريب طرحه بعض العرب المشارقة خاصة وهو: هل الجزائر حقا بلد عربي؟ بالنظر إلى انتشار اللغة الفرنسية بين المثقفين واللغة الدارجة المليئة بالمفردات الفرنسية بين العامة .وخير دليل على هذا هو لما توقف أحمد شوقي أمير شعراء العصر الحديث بوهران ووجد كثير من أفراد الأمة يلثغون بالفرنسية قال قولته الشهيرة ما أعتقد أن هذا الوطن عربي وقد قيض الله له من يجيبه فانبرى له محمد البشير الابراهيمي مفصلا حول هذه المقولة وكشف اللماط عن حال العربية وصراعها المرير في قلعة أمامية من قلاع العروبة

-3هجرة المثقفين إلى الخارج، خاصة إلى المشرق العربي أين كانت الضغوط على الثقافة العربية أقل مما هي عليه في الجزائر. ورغم أن الهجرة العلمية مفيدة في بعض جوانبها إلا أنها تترك فراغا رهيبا على المستوى التعليمي والثقافي، مما يشعر الشعب أنه مطالب بالحفاظ على حياته فقط، وليس التفكير في بناء مجتمعه على أسس علمية متينة. وكثيرة هي الأسر الجزائرية التي كانت على حظ وافر من الثقافة والفكر العربي الرصين وعت كل الوعي أن موجة الاستعمار لا تستهدف

الأرض فحسب بقدر ما كانت تستهدف النخاع الحضاري للأمة أي لغتها ودينها فلما أيقنت أن دينها وعروبتها في خطر داهم قررت الهجرة الى المشرق العربي حيث موردها الأصيل حفاظا على انتمائها وتاريخها فاستوطنت كثير من الأسر الجزائرية أرض الشام ومنها من فضل أرض الحرمين لقربه من المنهل الأصيل منبع النبوة وبيت الله الحرام ويجدر بالاشارة أن نمط الهجرة اختلف وتنوع فهناك من هجروا عنوة الى أراض بعيدة كل البعد عن موطنهم الأصلي فجحافل المجاهدين الأوائل من وقعوا تحت اسر الاستعمار هجروا عنوة الى كاليدونيا فعانوا ما عانوا من ويلات الغربة والاغتراب عن وطنهم والتربة التي نبتوا بها وترعرعوا في رحابها كما أن هناك هجرة أخرى مارسها الجزائريون وهي الهجرة الى بلاد الغرب وتنوعت أسبابها بين طلب للعيش وطلب للعلم الذي لم تعد قلاعه موجودة بربوع البلاد بعد أن عاث المستدمر فيها فسادا وتجهيلا لأفراد الأمة

-4 ضياع الكثير من مصادر المعرفة كالمخطوطات والتحف الفنية التي استولى عليها المستشرقون وغيرهم إما بغرض دراستها أو بغرض إبعادها عن الوعي العام، لأن أغلبها كان دينيا أو لغويا . بل وصل بهم الحقد والحنق الى اتلاف هذه المصادر المعرفية التي تعتبر ارثا انسانيا فقد حوت هذه الكتب معرفة وعلوما تعتبر ملكا وشركة بين بني البشر لكنهم لجهلهم أتلفوها واعتبروها حصنا يحول دون توسعهم وسلاحا يعترض مكنتهم من هذه البلاد يحي بقاءها ويمد حياتها ما امتد وجود هذه المادة المعرفية وهذا الأثر العلمي وسعوا لاستبدال هذه النباريس التي أضاءت مسار أمتنا عبر مسيرتها التاريخية التي لم يوقفها ولم يحور مسارها أي مدلس مهما أوتي من دواعي وأسباب القوة ولم يكتفوا بهذا بل راحوا ينفثون سمومهم بتشجيع سلوكات أقل ما يقال عنها أنها لا تمت لعنفوان هذه الأمة بصلة ولا تربطها بها وشيجة فنشروا البدع المستحدثة بحياة أمتنا والتي لم يعرف لها أسلافنا أصلا وسعوا الى تخمير العقول بخرافات لا أصل لها كبديل للفكر المستنير فهذا التشجيع

على البدع والخرافات لتكون بديلا عن التفكير العلمي الواعي، الذي عملت النخب الثقافية الجزائرية على زرعه من خلال المدارس والجمعيات. وقد رأينا كيف نجحت فرنسا في إذكاء الحرب بين جمعية العلماء المسلمين وبين بعض الفئات الطرقية التي استسلمت للأمر الواقع، وتقوقعت حول الأحلام والأماني والأوهام، هروبا من الواقع المأساوي العام الذي تعانيه البلاد وما كابده أفراد الجمعية ليس بالأمر اليسير وقد ألف في هذا الصدد العالم النحرير مبارك الميلي رحمه الله كتاب الشرك ومظاهره كمحاولة منه للتصدي لمحاولة الطمس والانحراف بالأمة عن نهجها الصائب فكتب واصفا كثيرا من المظاهر الشركية التي لا تمت للدين بصلة واستنكرها داعيا الى التخلي عنها واعتماد ما صفا ورق من منهل الشريعة العذب وهذا ما كان المستدمر الفرنسي يشجعه ويحث على نشره لولا أن انبرى رجال أشاوس قيضهم الله لخدمة دينه وإصلاح عباده وكثيرة هي المقالات التي تصب في ذات الموضوع حيث كتب ابن باديس مقالاته التي تصلح شؤون الأمة وكذلك قد أسال الابراهيمي كثيرا من الحبر وسود به الصحف قاصدا تنوير الأمة واعادتها الى نهج الشريعة الأغر أما محمد العيد آل خليفة فقد سخر ابداعاته الشعرية حيث تناول كثيرا من القضايا الاصلاحية في هذا المضمار منها قوله: (خليفة، 2012)

أراك بلا جدوى تضج من الـظلم * الى العلم إن رمت النجاة الى العلـم**
أراك بلا جدوى تضج وتشتـكي ***من الخصم في كل الأمور إلى الخصم
فخض في ميادين الحياة مكافحا * بمالك من عزم ومالك من حـزم**
ولا تدرع الا المعارف إنـها * سوابغ ينبو الطعن عنها فلا يـدمى**
رعى الله في أرض الجزائر نهـضة * مباركة في العلم تسمو الى النجـم**
وتنشئ للفصحى مدارس عـدة * مشيدة البنيان محكمة الدعـم**
تجد داعيا للعلم في الصور نافخا * وبعثا من الأشهاد يزخر كالـيم**

الخاتمة:

اجتهدت في هذا البحث على تسليط الضوء على الوضع الثقافي للجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي حيث أشفعت البحث بشهادات حية لمستوى التعليم في كل أرجاء الوطن وكشفت مدى تمسك الأمة بقيمها الحضارية وهويتها الثقافية وبالرغم من كل الجهود ومحاولات الاستعمار الفرنسي لطمس معالم هذه الهوية وخاصة اللغة العربية الا أن جهود الطبقة الواعية كان سدا منيعا حيث تصدت الأمة لكل محاولات الاستيلاب الثقافي وبقيت متمسكة بانتمائها الحضاري ولم تتسامح في التخلي عن أي من عناصر هويتها الحضارية إن اللغة أو الدين أو الوحدة الترابية حيث قدمت التضحيات الجسام عبر الأجيال المتتالية الى أن حققت استقلالها وراحت تأسس لقلعة أمامية قوية صامدة ضد كل موجات الغزو بكل أشكاله

قائمة المصادر والمراجع:

Turin, Y. (1971). Affrontementcultures dans lAlgerie coloniale. Paris: Francois Maspero.

الحصري ,س .(185) .آراء وأحاديث في اللغة والأدب .مصر :مركز دراسات الوحدة العربية.

الرافعي ,م .ص .(2017) .وحي القلم .بيروت :طبع بدار بن حزم.

الشاطئ ,ع .ع .(1998) .لغتنا والحياة .مصر :دار المعارف.

باديس ,ا .(1981) .آثار ابن باديس .الجزائر :دار ومكتبة الشركة الجزائرية .

بوشلوح ,س .(1998) .الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر .عين مليلة :الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

حسين ,ط .(1955) .خصام ونقد .القاهرة :مؤسسة هنداوي.

خليفة ,م .ا .(2012) .الديوان .عيد مليلة :الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

زرهوني ,ا .(1994) .لتعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال Dans .ا .زرهوني . الجزائر :المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

شداد ,ع .ب .Dans (1992) .ع .ب .شداد ,*الديوان* .(p. 83)مصر :دار الكتاب العربي.

شداد ,ع .ب .(s.d.) .الديوان :83 .دار الكتاب العربي.

شريط ,ع .ا .(1884) .ظرية حول سياسة التعليم والتعريب .الجزائر :المؤسسة الوطنية لفنون المطبعية.